

البحث الكيفي: تعريفه ومداخله النظرية والمنهجية واستخداماته في الدراسات التربوية

محمد عبد الحميد الطبولي

أستاذ علم الاجتماع، ورئيس جامعة بنغازي، ليبيا سابقا

DOI: <https://doi.org/10.54172/mjssc.v40i1.911>

المستخلص: صنف المتخصصون في مناهج البحث العلمي البحث من حيث الأهداف إلى قسمين رئيسيين البحث الكمي والبحث النوعي، وهيمن البحث الكمي على الدراسات الاجتماعية والتربوية منذ القرن التاسع عشر حتى بداية ستينيات القرن الماضي في أوروبا عامة وبريطانيا خاصة، وفي بداية سبعينيات القرن الماضي في أمريكا، حيث بدأ الباحثون في المجال التربوي يستخدمون البحث الكيفي، وعند الحديث عن البحث الكيفي في عالمنا العربي نجد أن هناك دراسات قليلة جدًا استخدمت البحث الكيفي عند تناول بعض القضايا المتعلقة بالتربية والتعليم وكذلك التعليم العالي، وجاءت هذه المداخلة لتلقي الضوء على البحث الكيفي من حيث مفهومه ومداخله النظرية والفلسفية وإجراءاته المنهجية، مع التركيز على المجال التربوي، وتتكون الورقة من ثلاثة أقسام رئيسية: يناقش الأول مفهوم البحث الكيفي، بينما يتناول الثاني المداخل النظرية والفلسفية والإجراءات المنهجية، ودور النظرية في البحث الكيفي، وأخيرا يعرض الجزء الثالث استخدامات البحث الكيفي في المجال التربوي واقتراح تصميم لظاهرة التمر في مدارس المرحلة الثانوية.

الكلمات المفتاحية: البحث الكيفي، البحث الكمي، مداخل فلسفية ونظرية، إجراءات منهجية، استخدامات البحث الكيفي.

Paper Title Qualitative Research: definition, theoretical, methodological approach, its uses in social and educational studies.

Mohammad Eltobuli

University of Benghazi

Abstract: Scientific research is divided into two main categories: Quantitative and Qualitative. Quantitative research dominated the fields of Social studies, and Educational studies from the 19th century, until the early sixties of the last century, when researchers started using Qualitative research in England. While American research used Qualitative research in the early seventies. The sociological and educational literature indicate that a few studies utilized qualitative research in their studies. This paper highlights the definition of qualitative research, its philosophical, theoretical approaches, and methodological producers. The current paper consists of three sections. The first one discusses the concept of qualitative research; the second section presents its philosophical, theoretical, theoretical approaches,

and methodological producers. The third section confers using qualitative research in educational studies and recommends research design for the bullying phenomenon in some high schools in Benghazi.

Keywords: Qualitative research, Quantitative research, Theoretical approach, Methodological procedure.

مقدمة

صنف المتخصصون في العلوم الإنسانية والتربوية البحث العلمي إلى عدة تصنيفات من حيث الأهداف، من بينها على سبيل المثال لا الحصر تلك التي تركز على الأهداف التي يسعى الباحث إلى تحقيقها، سواء كان ذلك لفهم موقف محدد أو سلوك ما، فربما يكون الهدف الذي يرغب باحث ما في تناوله هو فحص انتشار ظاهرة جديدة أو سلوك معين يقوم به بعض الأفراد في مؤسسة تعليمية معينة. وفي أحيان أخرى يرغب الباحث في وصف ظاهرة معينة أو سلوك ما لأفراد بعض الجماعات داخل المجتمع. بينما يسعى باحث ثالث إلى معرفة بعض الأسباب التي أدت إلى انتشار ظاهرة ما بين الأفراد أو الجماعات داخل مؤسسة تربوية بعينها، في الوقت نفسه، يمكن أن يكون للباحث عدة أهداف يرغب في تحقيقها، وفي حقيقة الأمر أن أغلب البحوث لها أكثر من هدف.

إن هذه الورقة تتعلق بأحد التصنيفات وهو تصنيف البحث إلى نوعين: البحث الكمي والبحث الكيفي، وسيكون التركيز على البحث الكيفي بالرغم من قناعتني بأنه ليس هناك بحث كمي صرف ولا بحث كيفي صرف. وتنقسم هذه الورقة إلى ثلاثة أقسام: يتناول الأول مفهوم البحث الكيفي، ويستعرض الثاني المداخل الفلسفية والنظرية والمنهجية للبحث الكيفي، بينما يناقش الثالث استخدام البحث الكيفي وطريقة تصميمه في الدراسات التربوية.

مفهوم البحث الكيفي

يشعر كثير من الباحثين بارتياح أكثر مع مفهوم البحث الكمي منه مع البحث الكيفي. فمناهج البحث الكمي تتعامل مع جمع بيانات رقمية، بينما تتعامل المناهج الكيفية مع لغة طبيعية، وهذا لا يعني أنه ليس هناك أرقام يتعامل معها الباحثون الكيفيون (Lemanski,etal.2011). ويمكن تعريف البحث الكمي بأنه ذلك النوع الذي يستخدم أدوات لاختبار نظريات عن طريق فحص العلاقة بين متغيرات. هذه المتغيرات في الحقيقة يمكن قياسها وتحليلها باستخدام الطرق الإحصائية (Creswell,2009). أما البحث الكيفي يقدم فهم واضح وعميق للظاهرة بطرق لا يمكن الحصول عليها من خلال مناهج البحث الكمي. ويمكن وصف البحث الكيفي بأنه أداة لاكتشاف المعنى الذي يتعارف عليه الأفراد أو الجماعات. ويعرف (Creswell2014) البحث الكيفي بأنه "مدخل لاكتشاف وفهم المعنى الذي يعطيه الأفراد أو الجماعات لمشكلة اجتماعية أو إنسانية" (33). البحث الكيفي من وجهة نظر بيير وليفلي (2011:38) هو "عبارة عن مجال فسيح رائع يقوم على تداخل فروع العلم الاجتماعي، وهو مجال غني بالمنظورات الفكرية إلى بناء المعرفة، كما أنه يستمد قوته من استعماله لعدد كبير من الطرق والأساليب المتاحة لتوليد المعرفة".

البحث الكيفي ببساطة هو ذلك النوع من البحوث الذي يتناول جمع بيانات غير رقمية، وهذا لا يعني أن البيانات الكيفية لا يمكن تكميمها في مشروع بحث كيفي يستخدم المقابلة أو الاستبانة أدوات لجمع

بياناته. كما يمكن استخدام أكثر من أداة في البحث الكيفي، ولكن طريقة استخدام هذه الأدوات تعتمد على نوع الدراسة وأهدافها وأسئلتها.

يرتكز البحث الكيفي على ثلاثة عناصر رئيسة هي: البيانات التي يتطلب الحصول عليها، والإجراءات التحليلية والتفسيرية المستخدمة للحصول على نتائج أو نظريات، وأخيرا التقرير الذي يشمل النتائج التي توصل إليها الباحث (شترأوس وكوربين، 2019: 21-22).

يتميز البحث الكيفي عن غيره من البحوث في كونه يتصف بطبيعة كلية تنعكس في كل مراحله ابتداءً من اختيار المشكلة إلى كتابة التقرير. ويتصف كذلك بكونه مهارة عقلية إبداعية، وهذا ما اشارت إليه شارلين هس بير وباتريشيا ليفي، حيث قالتا: "أن البحث الكيفي ليس مجرد مفهوم عام أو مجرد مجموعة من الأساليب التي يسهل استعمالها، وإنما هو مهارة عقلية إبداعية دقيقة جدا لا يكتفي من يمارسها بتعلمها فقط، بل يسهم كذلك في تطورها" (هس بير و ليفي 2011: 39). ومن بين خصائص البحث الكيفي كذلك أن عملية جمع البيانات تتم في المحيط الطبيعي للمبحوث وخبرته مع الموضوع الذي يدرسه الباحث. وفي هذا الصدد يقول (Creswell, 2014) "لا يقوم الباحثون الكيفيون بإحضار المبحوث إلى المعمل ولا يرسلون له في الغالب استمارة، وإنما يكون ذلك عن طريق جمع البيانات وجها لوجه". عندما يقوم الباحث بذلك فإنه يتحدث مع المبحوث وفي الوقت نفسه يلاحظ سلوكه.

المداخل الفلسفية والنظرية والمنهجية في البحث الكيفي

عند الحديث عن المداخل النظرية والفلسفية المتعلقة بالبحث الكيفي لا توجد طريقة دقيقة في تصنيف عدة وجهات نظر فلسفية أو اجتماعية أو حتى براداييم (Paradigm) أثرت في البحث الكيفي. ومن خلال مراجعة التراث البحثي تبين أن هناك عدة مداخل استخدمها الباحثون في دراساتهم الكيفية. ومن بين هذه المداخل أو البراداييمات (Paradigms) الوضعية وما بعد الوضعية، والنظرية النقدية، والبنائية، والمشاركة. (Creswell, 2014، Patton, 2002).

ستركز هذه الورقة باختصار على بعض من هذه المداخل ذات العلاقة بالبحث الكيفي في المجال التربوي التي تؤثر على اختيار الإطار النظري للبحث ومنهجيته من بينها:

• الوضعية (Positivism)

تحمل الوضعية بين طياتها نظرة علمية مفادها أن المدخل العلمي يمكن استخدامه لفهم كل من العالم الفيزيقي والتفاعلات الإنسانية. وتعد الوضعية من أهم المداخل التي أثرت في البحث الاجتماعي منذ القرن التاسع عشر خاصة في البحث الكمي، وبناء على هذا المدخل كان هدف البحث الاجتماعي الكشف عن قوانين سببية يمكن استخدامها في التنبؤ بأنماط عامة للسلوك الإنساني، وترتبط هذه التنبؤات بالضبط الاجتماعي، فإذا استطعنا التنبؤ بسلوك الأفراد فيمكن

إيجاد طرق لتحكم فيها (Esterberg, 2002). ومن أهم أنصار هذه النظرة عالم الاجتماع أقوست كونت، كما أنها أكثر النظرات التي استخدمها الباحثون التربويون. تحمل الوضعية فلسفة حتمية بحيث من المحتمل تحديد أسباب المؤثرات أو المخرجات، ولذا فإن المشكلات التي درست من قبل الوضعيين تعكس الحاجة لتحديد الأسباب التي تؤثر في المخرجات. (التجارب).

إن المعرفة التي تتكون من خلال عدسات الوضعية (Objectivity Lens) أسست على ملاحظات دقيقة وقياس للحقيقة المجردة الموجودة في العالم الخارجي. وعليه، يصبح تطوير عدة مقاييس للملاحظة، ودراسة سلوكيات الأفراد أساساً للوضعية. بالإضافة إلى ذلك هناك قوانين ونظريات تحكم العالم، وبناء عليه فإن المنهج العلمي المقبول من الوضعيين هو ذلك الذي يبدأ بنظرية ثم جمع بيانات يمكن أن تؤيد النظرية أو تفندها، وبعد ذلك القيام ببعض التعديلات الضرورية أو إجراء اختبارات إضافية. (Creswell, 2014).

البنائية الاجتماعية (Social constructivism)

تتبنى البنائية الاجتماعية من أفكار عالم الاجتماع K. Mannheim، ويعتقد علماءها بأن الأفراد يسعون لفهم العالم الذي يعيشون ويعملون فيه. ويطور الأفراد معان ذاتية لتجاربهم ومعان تختص بأشياء معينة في عالمهم الاجتماعي. تتعدد هذه المعاني وتختلف مما يقود الباحث الاجتماعي إلى البحث عن تعقد وجهات النظر وليس البحث عن المعاني الضيقة لبعض الأفكار والتصنيفات. في الوقت نفسه، يكون هدف البحث الاعتماد على وجهة نظر المبحوثين حول الموقف المدروس. ويتناول الباحثون الكيفيون عادة عمليات التفاعل بين الأفراد ويركزون في ذلك على مضمون محدد يعيش فيه الأفراد ويعملون من أجل فهم الأطر التاريخية والثقافية للمبحوث. (Creswell, 2014)

تنطلق البنائية الاجتماعية من مسلمة أن العالم الإنساني يختلف عن العالمين الطبيعي والفيزيائي ولذا يجب أن يدرس بطريقة مختلفة. تشير البنائية إلى أن الأفراد يكوّنون معارفهم وفهمهم وبينونها من خلال تفاعلهم مع العالم المحيط بهم. ومن بين النظريات التربوية المشتقة من مدخل البنائية الاجتماعية نظرية التعلم البنائي، وهي كما هو معروف توضح كيفية بناء المعلومات في الكائن البشري، كما أنها تهتم بطرق خلق المعرفة من أجل تكيف الفرد مع العالم الذي يعيش فيه. يستخدم هذه النظرية علماء النفس الإدراكي.

الأطر النظرية

تعد الأطر النظرية بناءات مختلفة من خلالها يمكن تصميم البحث وإجراؤه. وللحديث عن الأطر النظرية التي استخدمها الباحثون الكيفيون في دراساتهم نجد أن هناك تنوعاً في التركيز على جملة من النظريات وحسب الأهداف التي يرغب الباحث في التحقق منها فعلى سبيل المثال تركز الأثنوجرافي على الثقافة، وتركز الأثنوميثيدولوجي على الحياة اليومية، بينما تركز التفاعلية الرمزية على المعاني الرمزية في السلوك، وأحياناً التركيز يكون على الإشارات (Signs) في لغة الجسد، ومن جهة أخرى، تركز الفينيمولوجي (الظاهرية) على التجارب المعاشة. أما النظرية المجذرة فينصب تركيزها على عملية تأسيس النظرية بدلاً من مضمون النظرية. (لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة كتب تناولت النظرية في البحث الكيفي).

ويمكن تلخيص أهمها فيما يأتي:

• النظرية المجذرة

استخدم كل من كلا ستر وشتراوس عام 1967 مصطلح النظرية المجذرة، حيث تنتج نظرية من خلال تحليل البيانات المجمعة من قبل، وذلك عكس المدخل الذي يكون نظرية من عدة ملاحظات أو مفاهيم ثم تجمع بيانات لاختبار هذه النظرية، ويعتقد أن النظرية المجذرة تنشئ نظريات قريبة من الواقع. تركز النظرية المجذرة على عملية تأسيس النظرية أكثر من التركيز على مضمون نظري معين، كما أنها تؤكد خطوات وإجراءات من خلال ربط الاستدلال بالاستقراء وعن طريق مقارنة ثابتة لمواقع بحثية والقيام بعينة واختبار لمفاهيم منبثقة من الدراسة الميدانية. وفي الوقت ذاته تعتمد النظرية المجذرة على الطرق التي تأخذ الباحث إلى العالم الواقعي وتجعله قريباً منه. ولذلك فإن النتائج تجذر في العالم الأمبيرقي. ويعتقد (Creswell, 2014) "أن النظرية المجذرة قصد بها بناء نظرية وليس اختبارها، وتسعى كذلك لتقديم أدوات تحليل للباحثين لتعامل مع كمية كبيرة من البيانات الخام، وتسعى في نفس الوقت إلى مساعدة الباحثين الكيفيين على الأخذ في الاعتبار معاني بديلة للظاهرة، كما أنها توضح المفاهيم التي تشكل المكونات الأساسية للنظرية".

• الأثنوجرافيا

إن الفكرة من وراء البحث الأثنوجرافي هي أن يلاحظ الباحث أفعال المبحوثين من حيث الوقت. ويجب أن تجمع البيانات ضمن ما يسمى "الأماكن الطبيعية"، مناخات لا يمكن تبنيها أو تعديلها لأهداف البحث.

• الفينومنيجروفي

وهي إطار نظري يختبر عددًا من الطرق المختلفة التي يمر بها الأفراد أو يفكر في شيء كيفية. إذ تفترض أن هناك عددًا قليلًا منها دائمًا. وأن السلوك يدرس بدون تأثير الباحث. الملاحظة

• الظاهرية

إن النظرية الظاهرية سائدة ضمن العلوم الفيزيائية وتوصف بأنها " نظرية تعكس رياضيات نتائج الظاهرة دون اهتمام مفصل أهميتها الأساسية". في الفلسفة تستخدم المصطلح لدراسة بناء التجربة أو الشعور، ظاهر الأشياء، فعلم الظاهرات يمكن التفكير به على أنه دراسة الطرق السائدة التي فيها يمر الأفراد بتجربة شيء ما.

• الميثودولوجي

تنطلق الميثودولوجي من سؤال أساسي مفاده: كيف يجعل الأفراد لنشاطاتهم اليومية معنى يتصرفون من خلاله بطريق اجتماعية مقبولة. وفي الوقت ذاته تركز على تفاصيل الحياة اليومية الروتينية العادية. اخترع (Garfinkel, 1967) هذا المصطلح عندما كان يعمل على بعض الملفات في جامعة Yale الأمريكية. وتهتم الميثودولوجي بالنظام الاجتماعي عن طريق ضم الحساسية الظاهرية مع الاهتمام الأساسي بالنشاط الاجتماعي اليومي.

وفي توضيح بسيط للميثودولوجي نسردها اقتباسًا (Patton, 2002) (لواتسون وجلونت (1998) " الميثودولوجي كما يقترح الاسم هي دراسة الطرق أو المناهج، فهي لا تسأل لماذا، ولكن كيف. تسأل كيف يقوم الأفراد بأعمالهم، كيف يحولون موقفًا، أو يواظبون عليه " عدم التغيير " خطوة خطوة، ولحظة بلحظة، وكما يقترح الاسم، فإن الميثودولوجي تهتم بالطرق العادية ، طرق الأفراد " (97).

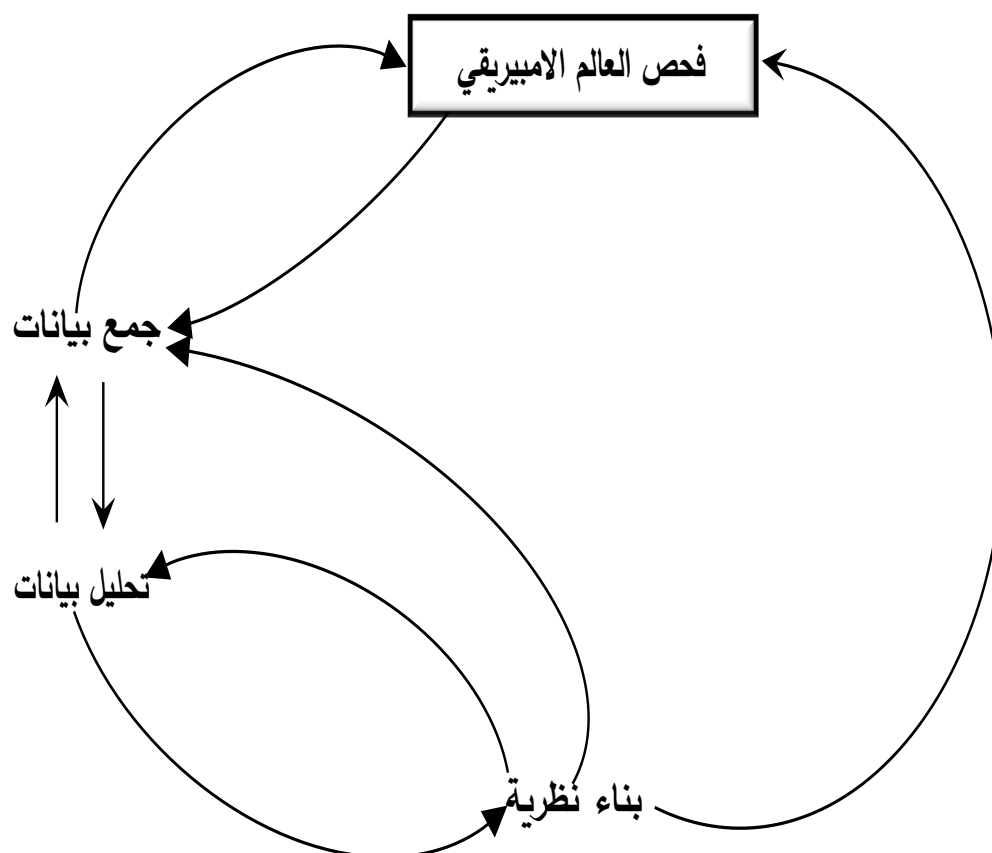
• الانعكاسية

تظهر مسألة الانعكاسية من ذاتية الباحث وردة فعل لاندماجه مع اجراءات البحث. وتصبح ذاتية الباحث في عملية البحث نفسها. وتسلط الانعكاسية الضوء انعكاس أفعال الباحث مع البيانات التي تحصل عليها. (Flick, 2009)

استخدام النظرية في البحث الكيفي

في العادة يعبر الباحثون الكيفيون اهتمامًا أقل بالنظرية في دراساتهم من الباحثين الكميّين ويستخدمون المنطق الاستقرائي أو المنهج الاستقرائي الذي لا يبدأ بنظرية معينة ومن ثم يبحث من خلال العالم الأمبيرقي للتأكد من حصول النظرية على دعم من البحث، وفي نهاية المطاف تبني نظرية متناسقة مع

البيانات التي جمعت لدعمها أو نفيها. وهذا ما يطلق عليه بالنظرية المجذرة (Grounded Theory) كما هو موضح بالشكل الآتي:



المصدر Esterberg, K. (2002) Qualitative Methods in Social Research, p7 بتصريف.
من خلال ما سبق يتضح لنا أن البحث الكيفي لا يسعى لاختبار النظرية ولكنه يسعى لصياغتها. من جهة أخرى هناك عدة استخدامات للنظرية في البحث الكيفي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

- تستخدم النظرية في البحث الكيفي لشرح سلوك عام أو اتجاهات.
- يستخدم الباحثون بشكل متزايد تصوراً نظرياً أو وجهة نظر في البحث الكيفي تساعد الباحث في طرح الأسئلة المناسبة لموضوع بحثه والبيانات التي يجمعها ومن ثم يحللها، بالإضافة إلى تحديد المجتمع والعينة.
- يستخدم البحث الكيفي في بناء نظرية (النظرية المجذرة). ويكون ذلك من خلال جمع الباحث معلومات عن طريق المقابلات التي يجريها مع المشاركين (المبحوثين) ويسأل المبحوثين بعد ذلك

أسئلة مفتوحة النهاية أو يستخدم تسجيلات أو يدوّن ملاحظات ميدانية، وفي المرحلة الثالثة يقوم الباحث بتحليل البيانات من الموضوعات أو التصنيفات التي قام بها، ثم يكون الباحث أنماطاً عامة، أو تعميمات أو نظريات من هذه المواضيع أو التصنيفات، وأخيراً يطرح الباحث تعميمات أو نظريات من تجارب سابقة.

- بعض البحوث الكيفية لا تستخدم نظرية صريحة ويرى البعض أن البحوث الكيفية لا تبدأ من ملاحظات ولكن يتكون البناء النظري السابق من نظرية ومنهج، تقدم نقطة البداية لجميع الملاحظات.

وينصح (Creswell,2014:99) الباحث عند استخدام النظرية في البحث الكيفي أن يقرر هل سيستخدم النظرية في المقترح البحثي أم لا، وإذا قرر عليه أن يحدد موقع النظرية في البداية أم في نهاية المقترح الكيفي.

إجراءات البحث الكيفي

عند إجراء أي بحث كمياً كان أم كيفياً على الباحث أن يحدد نوع البحث والمدخل أو الباراديم المناسب، كل ذلك مرتبط بالطبع بمشكلة البحث والقضايا المدروسة والتجارب الشخصية للباحث، وأخيراً لمن أعد هذا البحث. وكما للبحوث الأخرى طرق وأدوات بحثية، فإن للبحث الكيفي طرقته التي يسعى من خلالها الباحث إلى الحصول على إجابات عن أسئلته البحثية. تنتوع الطرق التي يستخدمها الباحثون الكيفيون، فإذا كان الباحث يسعى إلى تكوين معنى الظاهرة من وجهات نظر المشاركين (المبحوثين)، وهذا يعني تعريف ثقافة تشاركها مجموعة من الأفراد ودراسة كيف تتطور أنماط مشتركة لسلوكياتهم عبر فترة زمنية.

يحاول الباحث الكيفي التفاعل مع جمهور البحث عند قيامه بالبحث، وتتعرّز هذه العلاقة مع مرور الوقت، ومن ثم تتكون علاقات شخصية بينه وبين المشاركين (المبحوثين). في هذه الحالة ربما تغطي قيم الباحث وتحيزه وتلقي بظلالها على تحليله للبيانات التي جمعها، وعليه يجب أن يكون الباحث على دراية بأحكامه التقييمية (Value judgments)، ويحاول النظر إلى هذه البيانات من زاوية أخرى ويتبنى مدخلا موضوعيا لبحثه. (Coombes,2001:30-31)

هناك عدة وسائل لجمع البيانات للبحث الكيفي يمكن تناول بعض منها بشيء من الإيجاز فيما يأتي:

المقابلة باستخدام تعريف Patton تتكون المقابلة من " أسئلة مفتوحة النهاية، ردود حول تجارب الأفراد، نظرتهم، آرائهم، شعورهم، ومعرفتهم. وتتكون البيانات من اقتباسات حرفية ومحتوى كافٍ حتى تكون قابلة للتفسير". وهناك عدة أنواع للمقابلة يمكن إيجازها فيما يأتي:

- **المقابلة المقننة:** يعتمد هذا النوع من المقابلات على حصول الباحث على استمارة مقابلة مقننة أو اعتماده على استمارة تحوي مجموعة أسئلة مغلقة.
- **المقابلة غير المقننة:** لا يحتاج الباحث لاستمارة مقابلة معدة من قبل، ولكن يقوم بطرح الأسئلة على المبحوث ومن خلال إجاباته يمكن له طرح أسئلة أخرى لفهم والتوضيح.
- **المقابلة المعمقة** تعد المقابلة المعمقة من أكثر وسائل جمع البيانات استخداماً في البحث الكيفي، وهي عبارة عن محادثة بين الباحث والمبحوث (المشارك) تساعد على الحصول على أكثر من معلومات من خلال الحوار بينهما. ومن أهم مزاياها أنها تمد الباحث ببيانات دقيقة عما يعتقده الأفراد وما هي دوافعهم. وإذا كان الباحث يمتلك خبرة فسيحفز المشارك ومن ثم سيتحصل على بيانات قيمة، ويمكن أن تجرى هذه المقابلات وجها لوجه أو من خلال الهاتف أو وسائل الاتصال الإلكترونية المتوفرة للباحث (فيسبوك، انستجرام، ماسنجر...).
- **مجموعة التركيز** هي مقابلات غير مقننة على نحو فعال، حيث يتفاعل المشاركون أو الأشخاص الذين تجرى معهم المقابلة مع بعضهم بحرية، ويقوم الميسر بتحفيز كل المشاركين وتشجيعهم على المشاركة. وتشمل عددًا من المشاركين بين 6-10 أفراد، والهدف الأساسي منها الحصول على أسئلة مثل: كيف ولماذا. ومن أهم خصائصها أنه ليس بالضرورة أن يتواصل الباحث مع المشاركين وجهًا لوجه، إذ يمكنه استخدامها عن بُعد، بحيث يرسلها للأفراد ويتحصل الباحث على البيانات من خلال الضغط على الزر بجهازه الإلكتروني.
- **دراسة الحالة:** اختلف المتخصصون في مناهج البحث بصفة عامة في تصنيفهم لدراسة الحالة فمنهم من يرى أنها منهج، ومنهم من يرى أنها طريق، وفريق ثالث يرى أنها أداة (بن لعوج، 2020، جليبي 1983)، على سبيل المثال في مجالي الخدمة الاجتماعية تعد دراسة الحالة منهجًا، في حين تُستخدم في علم الاجتماع وسيلة لجمع البيانات، كما تُستخدم دراسة الحالة في التربية، ويعتمد ذلك على أهداف البحث. ويعد بن لعوج دراسة الحالة تصميمًا بحثيًا "يتخذ كموضوع له حالة واحدة أو عددا من الأمثلة المختارة من وحدة اجتماعية معينة" (بن لعوج، 2020:76).

تشمل دراسة الحالة إذاً فردًا أو أفرادًا أو جماعة، وربما تشمل مجتمعًا بأسره. دراسة الحالة طريقة من طرق جمع البيانات، يقوم من خلالها الحصول على بيانات عن الظاهرة أو الموقف المدروسة عبر المقابلات أو الاستبانة.

استخدامات البحث الكيفي في المجال التربوي

إن طبيعة المشكلة التي يسعى الباحث إلى دراستها وكذلك الأهداف التي يرغب في تحقيقها هي التي تحدد للباحث نوع الدراسة التي سيجريها، كيفية كانت أم كمية أو البحث المختلط، وفي واقع الأمر ليس هناك بحثٌ كميّ صرف ولا كميّ صرف، والاتجاه السائد الآن هو البحث التكاملي والتعددية المنهجية.

ومن خلال مراجعة التراث الاجتماعي والتربوي المتعلق بالبحث الكيفي فقط، يتضح للقارئ أو الباحث أن هناك نسبة ضئيلة من الباحثين خاصة العرب تهتم بالبحث الكيفي، ومن بين تلك الدراسات التي استخدمت البحث الكيفي في المجال التربوي دراسة الفقيه (2017) الذي تناول تصميم البحث الكيفي في المجال التربوي، وانصب تركيزه على بحوث تعلم اللغة. تناول الفقيه بعض الأسباب التي حالت دون استخدام الباحثين التربويين للبحث الكيفي عند دراسة بعض الظواهر والقضايا التربوية، استخدمت من بينها قلة الدراسات التي استخدمت البحث الكيفي ومناهجه، وعدم تخصيص مواد للبحث الكيفي. (الفقيه، 2017:3)

وهنا أتفق مع الفقيه وأضيف أن هيمنة علم الاجتماع الأمريكي على أغلب البرامج الأكاديمية بالجامعات في العالم وتركيزه منذ نشأته على البحث الكمي وتأثره بالفلسفة الوضعية حتى سبعينيات القرن الماضي، حيث بدأ استخدم البحث الكيفي في المجال التربوي والمجالات الأخرى. ودراسة الحنو، (2016 تسأل الباحث عن مدى استخدام منهجية البحث النوعي في مجال التربية الخاصة واستخدم عينة من المجالات العربية المحكمة لمعرفة " نسبة انتشار البحث النوعي ومدى توفر جودة البحث النوعي فيها" (190).

يُستخدم البحث الكيفي في العادة في دراسات ذات نطاق صغير، إذ ينشغل بمقابلات غير مقننة، ودراسة تاريخ حالة، أو ملاحظات. وعندما يتعلق البحث بأفراد أو جماعات صغيرة فإنه يساعد على فهم أفضل للتجارب التي حدثت.

تصميم البحث الكيفي

من خلال مراجعة الأدبيات المتعلقة بتصميم البحث الكيفي ليس هناك تصميم واحد يستخدمه الباحث، وإنما هناك عدة تصاميم يختار منها الباحث بناءً على الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها وطبيعة المشكلة أو القضية التي يرغب في دراستها. ومن بين أهم التصاميم المستخدمة في البحث الكيفي التصميم

البنائي التفسيري أو كما يطلق عليه (Cerwell,2014) النموذج البنائي التفسيري ويتكون من الخطوات الآتية:

يبدأ المقترح بتناول مشكلة الدراسة وأهدافها وأوجه القصور فيها، وأهمية الدراسة للقراء.

- أهداف الدراسة
- أسئلة الدراسة
- الإجراءات
- براداييم البحث الكيفي أو المدخل الفلسفي للبحث الكيفي
- دور الباحث
- جمع البيانات
- تحليل البيانات
- إستراتيجيات صدقية النتائج
- التأثير المتوقع للدراسة وأهميته
- المراجع
- الملاحق

فإذا أراد الباحث القيام ببحث عن التتمر في المدارس الثانوية في مدينة بنغازي-على سبيل المثال-واستخدم براداييم البحث الكيفي فعليه قبل الشروع في الدراسة أن يختار أحد نماذج البحث الكيفي التي تناولناها في الفقرات السابقة، والنموذج المناسب وهكذا دراسة هو النموذج البنائي التفسيري. وفي المقترح يعطي الباحث فكرة للقارئ عن الدراسة والغرض الأساسي من القيام بها وأهدافها. فعلى سبيل المثال إذا كان البحث يتعلق بقضية داخل الفصل ولتكن ظاهرة التتمر بين طلاب المدارس في المراحل التعليم الأساسية والثانوية، وقرر الباحث معرفة هل الطلاب الذين يعانون من هذه الظاهرة والمتضررين لكونهم أصغر سنا من أقرانهم؟

كذلك يمكن أن يتساءل الباحث عن سمات الطلاب الذين يتتمر عليهم رفقاؤهم؟ وما الخلفية الاجتماعية التي ينحدرون منها؟ وغيرها من الأسئلة ذات العلاقة بموضوع البحث؟ وكيفية اختيار العينة، وفي هذه الحالة ستكون العينة المقصودة هي الطريقة المناسبة للحصول على عينة البحث. هذا في حالة توفر سجلات لطلاب تتمر عليهم زملاؤهم. أما إذا لم تتوفر السجلات فيمكن الاستعانة بالمدرسين أو المختصين الاجتماعيين لمعرفة جمهور البحث، ومن ثم يستخدم عينة كرة الثلج. أما فيما يتعلق بطرق الحصول على البيانات وأدواتها فإن المقابلة المعمقة والملاحظة وبعض الوسائل الأخرى ستساعد الباحث

على بناء ثقة مع الأطفال المتمتر عليهم ويتحصل على معلومات ربما تكون أدق لا يمكن الحصول عليها من خلال أدوات البحث الكمي.

وبعد ذلك يقوم بتحليل البيانات وتفسيرها مضمناً ملاحظاته ودوره في البحث. ويتم تحليل البيانات من خلال البيانات التي تحصل عليها الباحث من المقابلات المعمقة أو الملاحظات الميدانية أو التسجيلات التي أجراها، وفي المرحلة التالية يقوم بتنظيم البيانات وتجهيزها للتحليل، ثم يقوم في المرحلة التي بعدها بقراءة متأنية للبيانات، ثم يرمز البيانات إما يدوياً أو عن طريق الكمبيوتر، ومن بعد يقوم بوصف وتفسير البيانات ويشمل ذلك تفسيراً للمعنى وللمواضيع التي صنفها الباحث بعد جمعه للبيانات.

الخلاصة

يعد البحث الكيفي مدخلاً للكشف عن المعاني التي يعطيها الأفراد أو الجماعات لمشكلة اجتماعية أو إنسانية ولفهمها. وتشمل إجراءات المنهجية أسئلة وخطوات منبثقة من الدراسات الميدانية، وتجمع بياناته عادة من بيئة المبحوث، ويبنى تحليل بياناته استقراءً من إجابات المبحوث إلى مواضيع عامة. ويقوم الباحث بتفسيراته وتحليلاته من معنى هذه البيانات. ويتميز التقرير النهائي للبحث الكيفي ببنائه المرن الذي يعد في الوقت نفسه عيباً. للبحث الكيفي عدة أهداف من بينها التعرف إلى مفاهيم أو بنائها، وقد يكون الهدف من تأسيس لنظرية (النظرية المجردة) وغيرها من الأهداف التي تتفق جميعها على فهم سلوك الأفراد وفهم المعاني التي يستخدمها (الدراسة من الداخل) عكس البحث الكمي الذي يدرس الظاهرة من الخارج. وفيما يتعلق بالمجال التربوي فالبحث الكيفي يمكن استخدامه لعدة قضايا تتعلق بسلوك الطلاب والمعلمين داخل الفصل، أو داخل المدرسة.

يزود البحث الكيفي طلاب العلم بمعرفة تفسيرية ذات مستوى عال من القدرة على التصوير الدقيق، ويقلل من التأكيد على أهمية النماذج والتفسيرات القائمة على مفردة سيطرت على البحث في العلوم الاجتماعية.

المراجع

- الحنو، إبراهيم. (2016) مدى استخدام منهجية البحث النوعي في التربية الخاصة: دراسة تحليلية لعشر مجلات عربية محكمة في الفترة من 2005 إلى 2014، مجلة التربية الخاصة والتأهيل، (10) (3): 179-212
- الفقيه، أحمد حسن. (2017) تصميم البحث النوعي في المجال التربوي مع التركيز على بحوث تعلم اللغة العربية المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية (5) (3): 354-368.

- بن لعوج، لطفي. (2020). مناهج وطرائق البحث في علم الاجتماع: عرض نقدي للاتجاهات والممارسات، ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر.
- جلبلي، علي وآخرون (1983). تصميم البحث الاجتماعي بين الاستراتيجية والتنفيذ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- شتراوس، أنسلم وكوربين، جوليت. (1999) أساسيات البحث الكيفي: أساليب وإجراءات النظرية المجردة. ترجمة عبد الله حسين الخليفة، مركز البحوث الإدارية، معهد الإدارة، الرياض.
- هس بيير، شارلين وليفي، باتريشيا. (2011) البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية. ترجمة هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- Creswell, John.(2009) Research design: Qualitative, quantitative, and mixed approaches, Sage Publication Ltd
- Creswell, John. (2014) Research Design, Qualitative, Quantitative, and Mixed Methods Approaches,4ed.Sage Publications, London
 - Coombes, Harley. (2001) Research Using IT, Palgrave, New York.
 - Esterberg, K.(2002)Qualitative Methods In Social Research. McGraw-Hill Companies, USA
 - Flick, U.(2009) An introduction to qualitative research, Sage Publications Ltd.
 - Lemanski, Tom. And Overton, Tina. (2011) An Introduction to Qualitative Research Tina UK Physical Science Centre.
 - Patton, Michael Q.(2002)Qualitative Research &Evaluation Methods.3d. Sage Publications, London